

لو اختصرتم من الإحسان زرتكمو والعذب يهجر للإفراط في الخصر^(١)
فلفظ «اختصر» الوارد في حشو المصراع الأول هو فعل ماض بمعنى قلل، ولفظ
«الخصر» بفتحتين في آخر البيت هو اسم بمعنى البرودة، فاللفظان متجانسان لفظًا
مختلفان معنى، ويجمعهما شبه الاشتقاق.

٣ - ومنه ما يكون اللفظان الملحقان بالمتجانسين يجمعهما شبه الاشتقاق وأحدهما
في آخر البيت والثاني في آخر المصراع الأول، كقول الحريري أيضًا:
ومضطلع بتلخيص المعاني ومطلع إلى تخلص عاني^(٢)
فاللفظ الأول «المعاني» من عني يعني، والثاني «عاني» اسم فاعل من عنا يعنو،
فالجامع بينهما شبه الاشتقاق.

٤ - ومنه ما يكون اللفظان الملحقان بالمتجانسين يجمعهما شبه الاشتقاق وأحدهما
في آخر البيت والآخر في صدر المصراع الثاني، كقول الشاعر:
لعمري لقد كان الثريا مكانه ثراء فأضحى الآن مثواه في الثرى
فاللفظ الأول «ثراء» واوي من الثروة وفعله «ثرا» يقال: ثرا المال يثرو: كثر، واللفظ
الثاني في آخر البيت «الثرى» بمعنى التراب يأتي، فعله «ثري» بكسر الراء، فاللفظان
متجانسان لفظًا مختلفان معنى، ولكن يجمعهما شبه الاشتقاق.

لزوم ما لا يلزم

هذا النوع من البديع اللفظي سماه قوم «الالتزام» و«لزوم ما لا يلزم»، وقد عده ابن
المعتمر من محاسن الكلام ومثل له، وعرفه بأنه «إعناات الشاعر في القوافي تكلفه من ذلك ما
ليس له».

ومن أمثلته عنده قول الشاعر:

يقولون في البستان للعين لذة وفي الخمر والماء الذي غير آسن
فإن شئت أن تلقى المحاسن كلها ففي وجه من تهوى جميع المحاسن
وقد عرف القزويني لزوم ما لا يلزم بقوله: «هو أن يجيء قبل حرف الروي أو ما في معناه

(١) العذب هنا: يعنى العذب من الماء. والخصر بفتحتين: البرودة. والمعنى: أن بعدى عنكم إنما هو
لكثرة ما أنعمتم على وطوقتموني من الإحسان.

(٢) المضطلع في الشيء: القوى فيه الناهض به؛ وتخلص العاني: فكاك الأسير.

من الفاصلة ما ليس بلازم في السجع» ، ومعنى هذا أن يلتزم النثر في نشره أو النظم في نظمه بحرف قبل حرف الروي أو بأكثر من حرف بالنسبة إلى قدرته مع عدم التكلف .

ولزوم ما لا يلزم من فنون البديع اللفظي الذي يرد في النثر والنظم على السواء ، وقد ورد في القرآن الكريم شيء منه إلا أنه يسير جدًا .

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ [الملق: ١-٢] وقوله تعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخَيْثِ ۝ [الجوار: الكئس] [التكوير: ١٥-١٦] وقوله تعالى: ﴿ وَالطُّورِ ۝ [وكتب مسطور] [الطور: ١-٢] وقوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝ [أم يقولون شاعر] نَرْيُكَ بِهِ رَبِّ السَّعْدِ ۝ [الطور: ٢٩-٣٠] وكالفاصلتين الأخيرتين من قوله تعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخَيْثِ ۝ وَالْأَيْلِ وَمَا وَسَى ۝ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۝ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ۝ [الانشقاق: ١٦-١٨] ، وعلى هذا النحو قوله تعالى: ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَفْغَيْتُمُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۝ [قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيْ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعْدِ] [ق: ٢٧-٢٨] .

ومن أمثله نثرًا قول ابن الأثير في مستهل كتاب إلى بعض الإخوان: «الخادم يهدي من دعائه وثنائه ما يسلك أحدهما سماء والآخر أرضًا، ويصون أحدهما نفسًا والآخر عرضًا» فاللزوم هنا في الرأء والضاد .

ومنه قول الحريري في المقامة الوبرية: «حكي الحارث بن همام، قال: ملت في ريق زماري الذي غبر، إلى مجاورة أهل الوبر، لأخذ أخذ نفوسهم الأبية، وألسنتهم العربية، فأوطنوني أمنع جناب، وفلوا عنى حد كل ناب . . .»^(١) .

ومنه قول بديع الزمان الهمداني في مقامته الجاحظية التي ينقد فيها كلام الجاحظ على لسان عيسى بن هشام: «فهلّموا كلامه إلى كلامه فهو بعيد الإشارات، قليل الاستعارات قريب العبارات، منقاد لعریان الكلام يستعمله، نفور من معتاصه يهمله، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة أو كلمة مسموعة؟»^(٢) فمن كلام الحريري وبديع الزمان ما التزم فيه بحرف أو أكثر قبل حرف الروي .

(١) مقامات الحريري ص ١٩٦، وريق زماري: أوله، وغبر: مضى وتقدم، وأهل الوبر: هم أهل البدو، لأخذ أخذ نفوسهم: لاقتدي بهم، وأوطنوني: أنزلوني وأحلوني، وفلوا: كسروا .

(٢) مقامات بديع الزمان ص ٧٥، وعريان الكلام: ما لا يكسوه ثوب الصنعة، ومعتاص الكلام: ممتعه مما تكثر فيه الصنعة فتبعده عن أذهان العامة .

ومن أمثلة لزوم ما لا يلزم في الشعر قول شاعر جاهلي :

عصاني قومي والرشاد الذي به أمرت ومن يعص المجرب يندم
فصبراً بني بكر على الموت إنني أرى عارضاً بالموت والدم
فاللزوم هنا في الميم والdal .

ومنه قول أبي تمام :

خدم العلا فخدمته وهي التي لا تخدم إلا قوام ما لم تخدم
فلماذا ارتقى في قلة من سؤدد قلت له الأخرى : بلغت تقدم
وقوله أيضاً :

ولو جربتني لوجدت خرقاً يصافي الأكرمين ولا يصادي^(١)
جديراً أن يكر الطرف شزراً إلى بعض الموارد وهو صادي
فاللزوم في المثال الأول لأبي تمام في الميم والdal ، وفي المثال الثاني في الdal والألف والصاد .

ومن الشعر العذب الذي لا كلفة عليه في باب اللزوم قول الحماسي :

إن التي زعمت فؤادك ملها خلقت هواك كما خلقت هوى لها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها بلباقة فأدقها . . . وأجلها
حجبت تحتها فقلت لصاحبي ما كان أكثرها لنا وأقلها!!
وإذا وجدت لها وساوس سلوة شفح الضمير إلى الفؤاد فسلها
فاللزوم في الهاء واللام .

ومن الشعراء المتقدمين الذين مالوا إلى اللزوم في شعرهم كثير عزة ، ومن شعره

الذي التزم فيه ما لا يلزم قصيدة تربو على عشرين بيتاً منها :

خليلي هذا ربع عزة فاعقلا قلوصكما ثم احللا حيث حلت
وما كنت أدري قبل عزة ما الهوى ولا موجعات الحزن حتى تولت
هنيئاً مريئاً غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلت
فما أنا بالداعي لعزة بالجوى ولا شامت إن نعل عزة زلت

(١) الخرق بكسر الخاء : الكريم المتخرق في الكرم المغالي فيه ، ولا يصادي : أي ولا يداجي ولا يداري .

وإني وتهيامي بعزة بعدما
لكالمرتجي ظل الغمامة كلما
كأنني وإياها سحابة ممحل
فإن سأل الواشون: فيم هجرتها؟
تخلت مما بيننا... وتخلت
تبوأ منها للمقبل اضمحلت
رجاها فلما جاوزته استهلته
فقل: نفس حر سُلّيت فتسلت^(١)

وممن مالوا إلى اللزوم من المتقدمين أيضًا عبد الله بن الزبير الأسدي، وذلك كقوله
من قصيدة في مدح عمرو بن عثمان بن عفان:

سأشكر عمرًا ما تراخت منيتي
فتي غير محجوب الغني عن صديقه
رأي خلّتي من حيث يخفى مكانها
فكانت قذى عينيه حتى تجلت^(٢)
أيادي لم تمنن وإن هي جلت^(٣)
ولا مظهر الشكوى إذا النمل زلت^(٤)
فكانت قذى عينيه حتى تجلت^(٤)

فاللزوم في شعر كثير عزة وابن الزبير الأسدي وهو في التاء واللام المشددة.

والتزام ما لا يلزم لدي المتقدمين كما يبدو من شعرهم يأتي عفو الخاطر غير مقصود
ولا متعمد، ولذلك لا يرى عليه من أثر الكلفة أو الصنعة شيء.

أما المتأخرون فتوسعوا فيه وأكثروا منه، ومنهم من تعمد وقصد إليه قصدًا، كأنما
يريد أن يدل بذلك على قدرته في النظم وسعة إحاطته باللغة ومفرداتها.

ومن أولئك الشعراء أبو العلاء المعري فله في هذا النوع من الشعر ديوان كامل
«اللزوميات» أتى فيه بالجيد الذي يحمد، والرديء الذي يذم.

ومن شعره الذي التزم في قافيته ما لا يلتزم قوله:

أرى الدنيا وما وصفت ببر
إذا خشيت لشر عجلته
حياة كالحبال ذات مكر
فلا يخدع بحيلتها أريب
أذاقته شهيا من جناها
فاللزوم هنا في الهاء والتاء والقاف.
إذا أغنت فقيرًا أرهقته
وإن رُجيت لخير عوقته
ونفس المرء صيدًا أعلقته
وإن هي سورتها ونطقته
وصدت فاه عما ذوقته

(١) أمالي القالي ج ٢ ص ١٠٧ .

(٢) لم تمنن: أي لم تقطع ولم تخلط بمنة .

(٣) إذا النمل زلت: زلة القدم والنمل كناية عن نزول الشر والمحنة .

(٤) خلّتي: الخلّة بفتح الحاء: الخصاصة والفقر .

ومنه ايضاً قوله:

تنازع في الدنيا سواك وماله
ولكنها ملك لرب مقدر
ولم تحظ من ذاك النزاع بطائل
فيا نفس لا تعظم عليك خطوبها
تداعوا إلى النزر القليل فجالدوا
وما أمَّ صِلْ أو حليلة ضيغم
تلاقي الوفود القادميها بفرحة
فأطبق فما عنها وكفاً ومقلة

ولا لك شيء بالحقيقة فيها
يعير جنوب الأرض مرتد فيها
من الأمر إلا أن تعد سفيها
فمتفقوها مثل مختلفيها
عليه وخلوها لمغترفيها
بأظلم من دنياك فاعترفيها^(١)
وتبكي على آثار منصرفيها
وقل لغوي القوم: فاك لفيها^(٢)

فاللزوم هنا في الهاء والياء والفاء، وقد التزم مع حرف الروي بحرفين .

ويجدر التنبيه هنا إلى الفرق بين لزوم ما يلزم ولزوم ما لا يلزم في القوافي . فمن باب لزوم ما يلزم قول الشاعر :

في شعاب النسيان أفردت وحدي
أجد الغدر والعقوق من الننا
والعذاب الروحي في ليلي الدا
فتمالي . . . وفي يديك انطلاق

فعبرت الأيام حياءً كميت
س وألقى الظلام في عقر بيتي
ثم أوردى دمي وأنضب زيتي
من فجاج النسيان أما أثبت

فحرف القافية هنا التاء والياء قبلها حرف ردف يلتزم به الشاعر في جميع أبيات القصيدة والعدول عنه إلى حرف آخر كأن يقول مثلاً «حضرت» بدل «أثبت» يعد عيباً في القافية .

أما في لزوم ما لا يلزم، كما هو الشأن في قوافي الأبيات السابقة لكثير عزة، وابن الزبير الأسدي والمعري، فاللازم هو حرف القافية فقط، أما ما عداه مما ألزم الشاعر به نفسه حرفاً كان أو أكثر فهذا يجوز للشاعر أن يلتزم أو يعدل عنه، ولا يعد في الوقت ذاته عيباً من عيوب القافية .

(١) فاعترفيها: أي فاسألها أينها النفس، وربما وضعوا اعترف بمعنى عرف، وعلى هذا يكون المعنى فاعترفيها: أي اعرف حقيقة دنياك يا نفس .

(٢) فاك لفيها: كلمة تستعملها العرب عند الدعاء بالمكروه والشماتة، وأصل ذلك أن السباع إذا تهاششت صرفت أفواها بعضها لبعض .

فلو التزم الشاعر حرف الراء مثلاً قبل القافية في قصيدة بعض كلمات قافيتها مثل «شرق وفرق وبرق» فإنه يجوز له أن يبقى على هذا الالتزام، كما يجوز له أن يعدل عنه ويقول: «شرق، وسبق، وخلق» دون أن يعد ذلك عيباً في القافية.

لزوم ما لا يلزم هو - كما يقول ابن الأثير - من أشق هذه الصناعة مذهباً وأبعدها مسلكاً، وذلك لأن مؤلفه يلتزم ما لا يلزمه. فإن اللازم في هذا الموضوع وما جرى مجراه إنما هو السجع الذي هو تساوي أجزاء الفواصل من الكلام المنشور في قوافيها. وهذا فيه زيادة على ذلك وهو أن تكون الحروف التي قبل الفاصلة حرفاً واحداً، وهو في الشعر أن تتساوى الحروف التي قبل روى الأبيات الشعرية^(١).

ومما لا ريب فيه أن هذا النوع من أصعب أنواع البديع اللفظي استخراجاً، ولكن مما لا ريب فيه أيضاً أنه يعد من محاسن الكلام، إذا وفق فيه الأديب فجاءه عفو الخاطر بدون تكلف ولا تعمل، وكان المعنى هو الذي يقود إليه ويستدعيه، وليس هو الذي يقود إلى المعنى.

* * *

(١) المثل السائر ص ١٠٦ .